المحاضرة الثالثة:

النظريات الدلالية (الإشارية والسلوكية)

تمهيد:

نستعرض في هذه المحاضرة مختلف النظريات الدلالية التي حاولت تقديم موقفها من السؤال " **ما هو المعنى وأين يكمن** " وسنقتصر في هذه المحاضرة على نظريتين هامتين هما:**النظرية الإشارية والنظرية السلوكية**، على أن نؤجل الحديث عن النظرية الثالثة الذائعة الصيت وهي النظرية السياقية إلى محاضرة لاحقة بالنظر لتعدد مفاهيمها والجوانب التطبيقية المتصلة بها، زيادة على ارتباطها بجملة من المواضيع الدلالية والتي ستكون بدورها مباحث في محاضرات مستقلة لاحقة.

كما ذكرنا سابقا ظهرت العديد من النظريات في مجال علم الدلالة حاول أصحابها تقديم إجابات عن ما هو المعنى وأين يمكن التقاطه وإيجاده، وفي هذا الإطار انقسمت آراء العلماء ونظرياتهم واختلفت باختلاف مرجعياتهم المعرفية وخلفياتهم الفسلفية ومن تلك النظريات ما يلي:

1-النظرية الإشارية:

تأسست هذه النظرية على بعض المفاهيم السوسيرية (نسبة إلى دي سيوسر) و بخاصة كلامه عن الدال والمدلول أو الدليل اللساني باعتباره مصطلحا ومفهوما يضم كل من الصورة الصوتية (الدال) والصورة المفهومية (المدلول)، وملخص هذه النظرية أن المعنى هو ما يمكن الإشارة إليه في العالم الخارجي، فحديثك عن شجرة يحيل على الشجرة كما هي في عالم الموجودات، يقول أحد الباحثين مدعما هذا التوجه بقوله: "وقد حاول بعضهم أن يحدد طبيعة المشار إليه لأقسام الكلام المختلفة:

- العلم (الاسم العلم): معناه:مشار إليه، فرد معين في الخارج
- الأفعال: معناها: الأحداث المشار إليها والواقعة في الخارج.
- الصفات: معناها خصائص الأشياء المشار إليها والواقعة في الخارج.
- الأحوال:معناها خصائص الأحداث المشار إليها والواقعة في الخارج.

ويذهب بعض أصحاب هذه النظرية إلى أن ما يدعم تأسس المعنى وتشكله على أساس الإشارة هو اكتساب اللغة لدى الطفل وفي مرحلة عمرية مبكرة، فالطفل الصغير يدرك ويتعلم أسماء الأشياء المحيطة به عن طريق الإشارة إليها فنقول له مثلا (مع الإشارة باليد) هذا "باب" وهذا "كأس" وهذه "كرة" وهكذا، غير أن الإشارة إلى الأشياء لا تبقي مرافقة للطفل في مراحله العمرية اللاحقة إذ تختفي الإشارة إلى الأشياء في الوقت الذي يتمكن الطفل من إدراكها وترسخها في ذهنه صوتا وصورة واقعية وذهنية، فتغني حينئذ الكلمة عن الإشارة فبمجرد سماع الكلمة تستحضر الصورة الذهنية ويتم تحصيل المعنى المراد.

إن التسليم بكون المعنى هو مجرد ما تحيل علية الكلمات أو الألفاظ في العالم الخارجي أو عالم الموجودات يصطدم ببعض الحالات التي لا يمكن للنظرية الإشارية الإجابة عنها وهي تشكل في الوقت نفسه بعض المآخذ والنقائص التي اعتورت هذه النظرية ومنها:

–ما موقف هذه النظرية من الحروف والأدوات مثل: ليت –لكن لعل– ثم.....إلخ إذ ليس لها وجود خارجي يمكن الإحالة عليه.

–ما موقف ذات النظرية من بعض الكلمات التي تتواجد في كل اللغات وهي من طبيعة مجردة مثل:الصدق – العدل – البراءة– الشجاعة –الحرية وغيرها، فهذه

الكلمات ذات معان مجردة ليس لها وجود خارجي تشير إليه، مع العلم أنها يمكن أن تفهم من خلال الأحداث أو المواقف التي تعكسها.

-كيف تتعامل هذه النظرية مع بعض الكلمات الموجودة في كثير من اللغات البشرية والتي تتضمن معاني غيبية مثل الجن – الملائكة أو ألفاظ دالة على الخرافات مثلما نجده شائعا في كثير من الثقافات الشعبية المنتشرة في العالم ومن تلك الكلمات أو الألفاظ:الغول –العنقاء–العفريت وغيرها.

2-النظرية السلوكية:

على غرار النظرية الإشارية حاولت النظرية السلوكية بدورها الإجابة عن سؤال ما هو المعنى وكيف يمكن القبض عليه باعتباره معطى مجردا وليس محسوسا، وقد قامت هذه النظرية في علم الدلالة متأثرة بعلم النفس السلوكي الذي يرى إن الإنسان من حيث سلوكاته وأفعاله هو محصلة مثيرات واستجابات، واللغة ما دامت سلوكا إنسانيا فهي لا تشذ عن هذه القاعدة، ومنه اعتبرت المدرسة السلوكية وعلى رأسها المؤسس " بلومفيلد " أن كل منجزاتنا الكلامية يمكن تفسيرها على ضوء (مثير –استجابة)، ولتوضيح المسألة أكثر يمكن تقديم المثال التالي:

يلتقي شخصان فيبادر احدهما بالقول: السلام عليكم ، فيرد الآخر:وعليكم السلام.

إن ما نطق به الشخص الأول هو استجابة لمثير قبلي قد يتمثل في كون الوقت هو الصباح، ومكان الالتقاء بالشخص الثاني هو الجامعة أو مقر العمل أو غيرهما، وما تفرضه ثقافة ذلك المجتمع وتقاليده في التحية مما أدى به إلى نطق هذه الجملة (السلام عليكم)، بالمقابل فإن الشخص الثاني الذي تلقى هذه التحية (الجملة) التي نعتبرها بمثابة المثير الذي هو مجموعة أصوات متسلسلة ومتتالية

تصل إلى أذن الشخص الثاني ثم إلى ذهنه فيستوعب الكلام ويفهمه أو يدركه ومن ثم يصدر عنه رد الفعل أو الاستجابة المتوقعة وهي في مثاالنا هذا قولة (وعليكم السلام)، ويمكن للطرفين أن يمتد بهما الكلام أو المحاورة ولكن بنفس المنطق الذي تتعامل به النظرية السلوكية فيكون كل منطوق /مسموع مجرد مثير يستدعي استجابة تتحول هي ذاتها إلى مثير يتطلب استجابة من الطرف الأول وهكذا.

وعلى العموم فإن هذه النظرية حسب بعض الدارسين " تركز على ما يمكن ملاحظته من اللغة؛ لذلك كان المعنى متساوقًا مع أسسها، ويجمله القول التالي: "يتألَّف من ملامح ورد الفعل القابلة للملاحظة، وأن معنى الصيغة اللغوية هو الموقف الذي ينطقها المتكلم فيه، والاستجابة التي تستدعيها من السامع أي إن معنى العبارة هو الحافز الذي يدعو إلى التلفظ بها، أو الاستجابة التي يستدعيها السامع، وبالتالي فالسلوكية تربط المعنى بالمواقف خارج اللغوية" .

وهذه النظرية بدورها لم تسلم من الانتقادات التي وجهت إليها ومن بين تلك المآخذ نذكر:

–ليست كل الاستجابات متماثلة وإن كان المثير واحدا، فقد تقول لشخص السلام عليكم وتكون استجابته السكوت مثلا إن كان بينك وبينه خلاف ما، وقد تكون الاستجابة جملة أخرى غير المتوقعة وغيرها. فالأمر ليس آليا بالصورة التي يعتقد بها أصحاب النظرية السلوكية.

–قد تكون المثيرات ليست واحدة رغم كون الاستجابة واحدة، فقول البعض منا "إنني خائف" قد تكون بفعل مثير هو الخوف فعلا من أمر ما ، وقد يكون بفعل مثير آخر وهو التمويه أو المغالطة، وقد يرتبط الأمر بمثير آخر تماما وهو مرض نفسي أو

غيره، وعليه لا يمكن اختصار كل مثير في استجابة بعينها أو كل استجابة كنتيجة لمثير حصري.

-الإنسان ليس آلة أو حيوانا يمكن اختزال سلوكاته وتصرفاته في مجرد المثيرات والاستجابات، فهو كائن له عقل وقدرات فطرية زوده بها الخالق عز وجل، وهذه القدرات الفطرية والعقلية بالأساس هي ما تجعل الإنسان قادرا على الابتكار ومخالفة ما يتوقع منه من استجابات او ما يمكن أن يكون مثيرات تؤدي إلى استجابات بعينها.